بالبعض الآخر وعلاقاتهم بالجماهير ، العلاقات بين القيادة وبين القاعدة ، الهيئات المنبثقة عن التنظيم وعلاقاتها ومهماتها ... الخ) والتنظيم هو الذي يستطيع القيام بعمليات التصحيح والاغناء للمسيرة الثورية من خلال قدرته المتواصلة في قياس الممارسات على النظرية . انه من هذه الناحية يشكل الضمانة الاقدر على الحيلولة دون تسرب امراض باتت معروفة حين ووجهت بها تجارب ثورية عبر التاريخ : (عبادة الشخصية ،نزعة المغامرة ، العسكريتاريا . الطفولة اليسارية ، الانتهازية ، الفردية ، البيروقراطية ... الخ).

ان النظرية تصبح عديمة الهدف اذا هي لم ترتبط بالممارسة العملية الثورية ، وكذلك فان الممارسة العملية ستصبح ممارسة على غير هدى اذا لم تنر طريقها نظرية ثورية (١) تلك هي الصيغة التي فسر بها ستالين ، كما يبدو ، جملة لينين الشهيرة « لا حركة ثورية بدون نظرية ثورية» .ولكن هذا الكلام كله ليس صيغاً سحرية ، ذلك ان « السبب في ان الماركسية تؤكد على اهمية النظرية يعود بالضبط . وفقط ، الى انها تستطيع توجيه العمل » (٢). ان الضابط الاساسي في هذه المعادلة هو التنظيم .

ان التشديد على القيمة الجوهرية للمسألة التنظيمية يعود هنا ، في الحقيقة ، الى الكثير من الاهمال الذي حظيت به هذه المسألة في التطورات السياسية العربية خلال نصف القرن الماضي والنتائج الباهظة الثمن التي ترتبت على ذلك الاهمال . ومن هنا فان اية عملية تقييم تستهدف النظر الى نشاط المقاومة الفلسطينية خلال تجربتها الماضية لا بد ان تتسلح بمنهج ، والا انتهت الى مجرد احساسات ومشاعر ذاتية ، تخضع في هذه الدرجة او تلك للانفعال ، وللجزئيات ، وتضرب في مجمل التعقيدات التي تحيط بالتجربة الراهنة على غير هدى : فثمة من يرى في العمل الفدائي الآن مجرد ممارسات عسكرية وينقدها ، او يصفق لها ، على هذا الاساس ، وثمة من يرى في هذه المرحلة مجرد مناسبة للتسابق في بناء المواقف النظرية او الاغراق في عملية التنظير السياسي ليس غير .ولا شك ان ثمة من يتخذ الأمرين معاً ، الممارسة والنظرية ، خلفية اساسية لتقييماته . على ان ذلك كله يظل ناقصاً ، ولا ريب انه يؤدي الى الاخلال بالميزان الصحيح للعملية النقدية التي لا بد منها والتي لا غنى عنها ، هذه العملية التي يمكن مهما بلغت جرأتها ان تؤدي الى نتائج معاكسة حين تصوب رؤيتها على جزء واحد من اجزاء الصورة ، وتغلبه على بقية أجزائها المترابطة . إن النظرة النقدية المسؤولة ، بالنسبة لهذه المرحلة بالذات التي تجتازها حركة المقاومة الفلسطينية ،ينبغي ان تواجه جملة المسائل الاساسية من خلال صفتها الجدلية ، ولا شك ان عملية «تسكين» جزء منها سيوصل التقييم الى رسم حجوم خاطئة لطبيعة الامور التي تحدث: ان قياس المقاومة الفلسطينية بمجرد البلاغ العسكري ، او قياسها بمجرد الموقف السياسي النظري ، او قياسها بمجرد الشكل التنظيمي ، سيؤدي لا محالة الى خداع الجماهير ان نحن لم نقل خداع الذات، ولا بد لهذه المسائل الثلاث ، من خلال وعي علاقتها الجدلية ، ان تمتحن معاً .

ولا بد من الاعتراف بصعوبة مثل هذا العمل ، هذه الصعوبة التي تعود بالدرجة الاولى الى عضوية الترابط الموضوعي بين هذه الموضوعات الثلاث : النظرية والممارسة والتنظيم . الا ان

(١) ستالين : اسس اللينينية .
(٢) ماوتسي تونغ : المؤلفات المختارة (مجلد ١ - ص ٤٤٥).

البديهي هو ان يكون الغرض من النظر الى كل منها على حدة ناتجاً عن حاجة دراسية فحسب ، على ان يسمح للتداخل الحتمي بين هذه الموضوعات ان يصل الى مداه .

١ - الفكر السياسي في حركة المقاومة

لم يعد قول لينين بان « لا ثورة دون نظرية ثورية » مسألة نقاش ومماحكة . ولكن هذه القضية لا تقف هنا ، ولا يشكل هذا الشعار صيغة سحرية بل ربما كان بداية لمسألة أشد تعقيداً . والحزب الشيوعي الصيني ذاته يعلن أن « الماركسية - اللينينية ليست معتقداً ، بل هي دليل للعمل وهي تتطلب ان ننطلق من الواقع ، وان نطبق بمرونة وبروح مبدعة مبادئها لحل المشكلات التي تبرز في مجرى النضال ، وان يتاح لنظرياتها استمرار التطور » (١). وماوتسي تونغ نفسه ، كما ذكرنا ، يقرر ان تأكيد الماركسية على ضرورة وأهمية النظرية يعود بالضبط ، وفقط ، الى انها تستطيع توجيه العمل .وماوتسي تونغ هو ذاته ايضاً من وصف محاولات نقل التطبيقات السوفياتية حرفياً الى الثورة الصينية بانها «اشبه بمن يبري قدميه لتلائما الحذاء » (٢) ان ذلك يشير بلا ريب إلى ان مسألة الولاء لنظرية ثورية هي مسألة ابداع او مسألة تعامل مع الواقع الموضوعي من خلال تلك العملية الجدلية التي يتبادل فيها التطبيق مع النظرية تراهما المشترك . وربما كان لينين هو اكثر من شدد على هذه المسألة .

ثمة في الساحة الفلسطينية ، متاوأة مزدوجة من جهتين مختلفتين لهذه الموضوعة : فمن ناحية يشدد طرف على عدم ضرورة وأهمية النظرية الثورية في الثورة ، ومن ناحية أخرى يشدد طرف آخر على بري رأسه ليلائم القبعة الماركسية الجاهزة . ومن المفيد ملاحظة نتائج هذين السلوكين المتناقضين : فالطرف الاول الذي يلغي أهمية النظرية الثورية في الثورة يتجه اكثر فأكثر نحو اظهار ثقله على صعيد الممارسة ، في محاولة لاعطائها الاهمية الاولى وربما الوحيدة ، فأخذ وجوده الطابع العسكري بالدرجة الاولى ، فيما اتجه الطرف الآخر نحو الاغراق في «التنظير» - باسم اليسار - على حساب الممارسة الثورية الحقيقية ، واحياناً على نقيض منها ، جاعلاً القيمة الاساسية لوجوده وقفا على صيغ واصطلاحات ومواقف منسوخة نسخاً عن ادبيات اليسار الماركسي اللينيني . لماذا ، اذن ، ذلك التشديد الذي كرره اساتذة الاستراتيجية الثورية ، على ضرورة النظرية الثورية وعلى ضرورتها بشكل خاص كدليل عمل ؟ ان الثورة ، حتى في تفاصيلها اليومية ، لا يمكن ان تتقدم ان هي لم تكن مزودة بافق استراتيجي ، والقيمة الأساسية للتحركات التكتيكية - السياسية والعسكرية - هي في كونها تصب في نهاية المطاف في مصلحة ذلك الافق الاستراتيجي .

من المعروف انه - حتى عسكرياً - تبدو القضايا التكتيكية بعيدة عن الاهداف السياسية النهائية . ولكن يبدو من الصعب ، ان لم يكن من المستحيل ، فصل الاهداف السياسية عن الرؤيا الستراتيجية . فاذا كنا على قناعة بان التكتيك هو طرف واحد في عملية جدلية تتقدم

(١) تقرير يتنغ سياو - بينغ للمؤتمر القومي الثامن للحزب الشيوعي الصيني ١٩٥٦/٩/١٥.
(٢) المؤلفات المختارة - (مجلد ١) صفحة ٢٦٦ .